النظرية السلوكية

فلسفة ديوي العملية ونظرتهُ الى المادة

للاستاذ يعقوب فام

اشرنا في مقال سابق الى ان النظرية السلوكية ارتكزت فيما ارتكزت عليهِ على فلسفة ديوي . فهذا الفيلسوف الكبير وان كان لا يؤمن بالسلوكية كما يدعو اليها جون وطسون الاَّ ان نظرتهُ في الفلسفة عامة وفي العادة بوجه خاص مما يساعد وطسون واشياعهُ على الاغراق في خطتهم والاسعان في طريقتهم في علم النفس . والواقع ان العالم الفكري في نيويورك على العموم وفي جامعتها على الخصوص — جامعة كولومبيا — يتفق في كثير من الامكنة مع ما يأخذ بهِ السلوكيون . ثم ان التجارب التي اجراها علماء نيويورك ساعدت هذا المذهب الجديد واعدقت عليهِ الحقائق اغداقاً جعلهُ يحتل مكاناً عالياً في العالم الفكري لم يكن ليحتله لو لم تكن نيويورك قد قامت بقسطها من هذا . والواقع ان اي شيء في علم النفس يحظى بموافقة ثورندايك وودورث وجيتس وموزر وديوي الضمنية او الصريحة لا بد وان يقبل في معظم بقاع الارض ويعطى المكان اللائق لهُ . ذلك لانك تستطيع ان تركن الى استنتاجهم الطبيعة والى انقام العلمي الذي يتمتعون بهِ . نحن لا نزعم ان العالم يقبل قضاياهم مغمض العينين ، ولكننا نزعم ان الشأن معهم كالشأن مع طلعت بك حرب وعلي باشا ابرهيم في مصر ، فما يقول الاول منهما في الشؤون الاقتصادية ، وما يذهب اليهِ الثاني في الجراحة يجب ان يكون لهُ وزن في هذا البلد ، ويجب ان يقبلهُ جمهور المفكرين على انهُ رأي لهُ من الدراية والخبرة ما يجعلهُ ذا قيمة كبيرة في تصرفاتنا وفيما نأخذ بهِ من الآراء

يدل على الاثر الذي خلفتهُ مدرسة نيويورك في علم النفس وعلى انها كانت احدى الدعامات الرئيسية التي ارتكزت عليها السلوكية بنوع خاص — يدل على هذا انهُ لما طلب الى ماكدوجال ان يكتب مقالاً في كتاب حديث عن النظرية السلوكية وضع هذا العنوان لمقالهِ: « علم النفس الذي يدرسونهُ في نيويورك » . ثم كتب عن مسؤلية هذه المدرسة في معاونتها للسلوكية على الذيوع والانتشار ، وخص مقالتهُ بهذه الناحية فقط وخرج منها

بأن اصل السلوكية متغرس في تربة نيويورك وان كانت اغصانها وفروعها منتشرة وترى بشكل جلا العين حيث يقيم جون وطسون نفسه. نعم ان ماكدوجال لم يقل ان نيويورك سلوكية في مذهبها . ولا نقول نحن بهذا ايضاً، وانما ما نحب ان نبينهُ بوضوح وجلاء هو هذا : ان النظرية السلوكية كما هي الآن لم تكن لتظهر على ما نظن بهذا الشكل لو لم تكن نيويورك قد عضدتها وشدت ازرها بطريق غير مباشر . وقد رأينا في المقالات السابقة ما فعلهُ ثورندايك في هذه الناحية، واما ديوي فقد اكتنب لهذه النظرية بشيئين

***

اكتنب ديوي اولاً بنظريتهِ في العادة . ولو ضغطت على هذه النظرية وتبعتها الى اقصى ما تستطيع ان تصل بك ، لوجدت انها تزعم ان الانسان آلة ميكانيكية لا غير. نعم انهُ لم يقل ذلك وحقاً ان ديوي احصف من ان يقول بهذا واحكم من ان يسلم بالميكانيكية Mechanism في الفلسفة او في علم النفس . ولكنك عند ما تتوغل في نظريته في العادة وتستقصيها الى حدودها ، وتتفهم روحها ومراميها ، لا يمكنك ان تخرج الا بان الانسان في تصرفاته يشبه الآلة الميكانيكية ، لا بل هو كذلك دون شك . لقد كتب ديوي عن علم النفس ، ومفتاح ما كتب هو هذه العادة التي، اذا فهمتها على حقيقتها ، وجدتها حجر الزاوية في نظريته النفسية

يقول ديوي « كل الفضائل وكل الرذائل ان هي الا عادات، والشخصية مجموع عادات والارادة عادة، والاخلاق تنتج من تفاعل العادات بعضها مع بعض ، والتفكير نفسه ان لم يكن جزءاً من العادة فهو عادة مستقلة بنفسها ، والفضائل من الوجهة العملية منها حرف وعادة وقصص شعبية، ومع ذلك فان العادة لا تفهم الا على الطريقة الميكانيكية الآلية . والواقع ان الحياة في مجموعها لا تؤثر وتفعل الا عن الطريق الآلية . ولكي نفهم العادة ذاتها يجب ان نرجع الى الطبيعة والكيمياء والفيزيولوجيا وليس لعلم النفس »

لاحظ ان ديوي لم يقل ان الانسان آلة

سلسلة تقيمة

طلبنا الى الاستاذ يعقوب فام صاحب رتبة استاذ في التربية من جامعة ييل وسكوتيرتعليم الصبيان في جمعية الشبان المسيحية ان يبسط لقراء النظرية السلوكية في علم النفس فوضع خمس مقالات كل مقالة منها مستقلة عن الاخرى ولكنها ترتبط في معالجتها لموضوع من نواحيه المختلفة

وقد نشرنا مقالتين منها (الاولى) مباحث بافلوف في الارتباط الشرطي و(الثانية) تتناول مباحث ثورندايك في القطة والباحث الحديثة في تعدد الصفات وها هي ذي المقالة (الثالثة) وتليها المقالة الرابعة في مبادىء النظرية السلوكية والمقالة الخامسة — نقد وتقدير

او اداة ميكانيكية ولكنهُ يقول ان نشاطهُ يحتاج الى هذه الميكانيكية ، وبمعنى آخر انهُ إذا لم يكن الانسان آلة ميكانيكية حقا فهو كذلك من وجهة عملية ، وبكلام اوضح كأنهُ يقول « انا لا اؤمن ، يا اسيادنا ، أن الانسان اداة لا غير . ولكن لا ارى الاَّ انهُ اداة . قد يجوز ان يكون الانسان بخلاف ذلك ولكني لا استطيع ان ازعم في ضوء الحقائق التي وصلتنا — ان الانسان شيء غير اداة وآلة تنفعل وتفعل متى وجدت ما يدفعها الى الفعل والنشاط »

ونحن نعرف بالطبع كيف تتكون العادات ، والطريقة الآلية المحضة التي تتكون بها ، فالبيئة تقدم المؤثر الذي يفعل في الكائن ، والكائن يقدم الاستجابة المطلوبة ، وتتكرر هذه العملية وتتوالى الى الوقت الذي ينفعل فيه الكائن بطريقة آلية محضة من غير ان يكون لهُ رأي او عاطفة ، ومن غير ان يتعمد الاستجابة للمؤثر بأي شكل . ولنضرب على ذلك مثلاً بانسان يريد ان يتعلم ركوب العجلة . في هذه العملية نرى هذه الامور واضحة (١) الارادة. فلا بد من العزم قبل ان يشرع في التعلم (٢) يصحب التعلم عاطفة السرور للنجاح والحزن للفشل ، (٣) يفكر في كل الحركات التي يأتيها حتى يستطيع ان يسقط منها ما لا يستقيم مع غايته. فكأن هذا الانسان استعمل كل قواه النفسية من ارادة وعاطفة وعقل للوغ هذه الغاية . ولكنهُ متى تعلم — او بعبارة أخرى متى صارت هذه عادة فيه ، لا يعود يستخدم شيئاً مطلقاً من قواه النفسية . ويصبح مجرد اداة وآلة عند ما يجمع التمرين بينهُ وبين العجلة (الدرّاجة). وعند ما تلمس يده العجلة لا يشعر بشيء مطلقاً الاَّ ان يجد نفسهُ فوقها وسائراً في الشوارع الى غايته . ولا نرى في هذه الحالة اثراً للارادة او العاطفة او العقل

***

هذا الجزء من نظرية ديوي يخدم قضية السلوكيين اجل خدمة ، وخصوصاً لانهُ صادر عن ديوي ابعد الفلاسفة اثراً في حياة الاميركيين . ولكن السلوكية تقف عند هذا الحد ولا تتعداه ، وبعبارة اخرى لا تسير وراءه الى اكثر من هذا . فهذه الناحية من فلسفة ديوي آلية ميكانيكية والنظرية السلوكية آلية ميكانيكية ايضاً ، فلماذا لا تستخدم السلوكية هذا العون الذي هبط عليها من السماء ؟ لماذا لا تستغله اكبر استغلال ؟ يجب ان تفعل ذلك : وها هي تفعل

لكن ديوي يقول انهُ لا يستطيع ان يزعم ان الانسان آلة ، وهذه نقطة مهمة لا يجب ان نغفلها من حسابنا . لا بل يجب أن ننتبه لها كل الانتباه لنا ان نفهم ديوي ونظرياته . والعالم يفهم هذا عن ديوي ، والسلوكية ايضاً تفهمهُ حق الفهم ولكنها لا تقيم له وزناً . وما عليها

ان اختلفت مع ديوي او مع غيره ؟ هي لم تأخذ على عاتقها ان توفق بين الفلاسفة ، وليس في برنامجها ان تخضع لديوي او لغيره . هي تفهم حقا انه من مصلحتها ان يكون ديوي في جانبها يضحي عنها ويميتها . وهذا الجزء من فلسفته يفهمها وتستطيع ان تستغله . وأما ماعدا ذلك فلا تهتم له ولا تحاول ان تطعن فيه . وعلى اي حال فقد وجدت السلوكية في ديوي نصيراً وفي نظريته في العادة عوناً كبيراً ، وهي تقبل هذا وكفى

* * *

والشيء الثاني الذي اكتسب به ديوي للسلوكية هو فلسفته ، ورأيهُ في الحقائق الكونية وفي المعرفة والميتافيزيقا . حقا ان فلسفتهُ لم توجد في الاصل لخدمة السلوكية او غيرها من نظريات العلم . هذا حق ، ولكنهُ حق ايضاً ان السلوكية ستُثرث لهذه الفلسفة . وغبطت نفسها لانها عندما رأت النور في هذه الدنيا وجدت مثل هذه الفلسفة التي يمكنها ان تعيش وتنشأ وتترعرع في كنفها ، وتحتمي بها عندما يشتد الجدل ويحمى وطيس المناجلة ، وليس من شك ان هذه الفلسفة قوية بشيئين . اولاً قوية بديوي نفسه . وهو قوة لا يستهان بها — ثانياً هي قوية لانها مستندة الى الحقائق العلمية من جهة والى قواعد الذوق السليم من جهة اخرى

الاميركيون اناس عمليون اكثر منهم نظريون ، لا بل يصح ان نزعم انهم يميلون عن النظريات وخصوصاً ما كان منها يدخل في باب التجربة (Abstractions) والرجم بالغيب . والانسان يستطيع ان يتحدث الى مفكريهم ما شاء عن النظريات ، وعن الفروض والاحتمالات التي تتصل بالكون في مجموعه ، والتي تتصل منها بالحقائق الموضعية والمحلية ، يستطيع ان يتحدث اليهم بهذا وبما يشبههُ ، ويستطيع ان يرى لنفسه انهم قوم مثقفون مطلعون على تطورات الفكر من عهد امة الفكر في اليونان الى يومنا هذا ، ثم يستطيع ان يرى لنفسه انهم يتمتعون بقسط وافر من الذوق السليم (Common sense) ، وانهم يزنون الامور بميزان ، ويدلون على اتجاه الامور ، ويبينون الاحتمالات ، ويكشفون المتناقضات في النظريات التي تعرض لهم في دراساتهم المختلفة ، فمن هذه الناحية لا تجد انهم يختلفون في شيء عن مفكري اوروبا الحديثين ، والواقع انهم منتبهون لكل الحركات الفكرية الحديثة في العالم وسباقون الى الاتصال بها عن قرب ، وممارستها عن كثب

هؤلاء هم الاميركيون ، وهم كاثرى لا يختلفون عن الاوربيين من هذه الوجهة ، واما من الوجهة الاخرى فهم جد مختلفين ، لانهم يصرون على ان يروا اثر اي نظام فكري في الحياة العملية . هم

لا يكتفون بالنظريات بأي وجه من الوجوه ولكنهم يعنون اكثر بالتجربة وبالاختبار وبتطبيق النظريات ويهتمون لهذه اكثر من النظريات نفسها ، وكل نظام فكري وبحث نظري لا يعضده الواقع ولا تسنده الحقائق المحلية التي يكتشفها العلم ويعثر عليها الذوق السليم لا يستحق عندهم شيئاً . وأول سؤال يقدمهُ لك الاميركي المفكر عند ما تتحدث معهُ عن بعض النظريات هو هذا «وما اثر هذا في الحياة الواقعية وفي العيش من يوم الى يوم؟ هل تستقيم هذه النظرية مع التجربة والاختبار (Does it work?) هل لهذه النظرية ما يدعمها من المشاهدات والاختبار ؟ هل تجوز الامتحان العملي ؟ » وهي حق اولاً وتستحق الاهتمام ثانياً اذا كانت تجوز هذا الامتحان ، وهي ليست حقًّا وليست ذات قيمة اذا لم تجزه

***

من نوع الحياة التي يحياها الاميركي نبتت الفلسفة التي يعتنقها ويؤمن بها . والاميركي في هذا ليس مبتدعاً ، وانما هو يدرج على سنن الناس اجمعين ، فالفلسفة في اي مكان او زمان هي التنظيم الفكري لحياة الجماعة وهي الناحية المعنوية لنوع الحياة في اي صقع . فكما ان الناس يعيشون بأجسادهم في بيئة خاصة ، كذلك هم يعيشون في جو فكري يستمد قواعده ونظمه من تلك الحياة المادية . فالحياة الزراعية التي تعتمد على شهوات الطبيعة تكون فلسفتها في الغالب صوفية جبرية ، والانسان الذي يعيش وسط الآلات الميكانيكية يضغط على ازرار الاداة فيحرك عالماً صغيراً وهو واقف يشهد سيرها ويدبر لها اغراضها — انسان مثل هذا يصعب عليه ان يكون جبريًّا بأوفى معاني الكلمة

اذن فالفلسفة الاميركية مبنية على التجربة والاختبار والمشاهدة ، والنظريات التي يدعمها الاختبار تبقى ، وتلك التي لا تستقيم مع التجربة تذهب . هذه هي الفلسفة العملية ، وهي فلسفة ديوي (وجيمز من قبله) ويدعوها (Pragmatism) ومعناها (العملية) . ومحصل هذه الفلسفة انهُ لا يحسن بنا ان نتكهن عن هذا الكون بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود ، وبأكثر مما تسمح به الحقائق المتوافرة لنا . وليس معنى هذا اننا ننكر اي شيء من هذا القبيل ، ولا نثبته ايضاً ونتضح عنهُ ، وكل ما نستطيع ان نفعله في هذه الحالات هو ان نقول «قد يجوز ، يمكن ، قد يكون» وبخلاف هذا لا يجب ان نقطع برأي . ومن هذه الوجهة يصح ان نعتبر الفلسفة الاميركية نوعاً او فصيلة من الفلسفة الواقعية الجديدة او ما يسمونهُ neo-realism

ويرى من هذا ان الفلسفة العملية تعتمد على الحقائق التي تستمدها من الاختبار والمشاهدة ، وبمعنى آخر نجدها تبتعد عن المنطق او علم الكلام عندما تريد ان تبني لنفسها نظاماً للكون

والحقائق الازلية ، ذلك لانها لا تحب (كانت) ولا تعطف على نظرياته ومحاولاته الكلامية في تشييد فلسفة معقولة ونظام محكم . ولكنها ترجع الى الحس والى الامور المشاهدة، علماً منها انهُ مهما حاول المتطفون ان يتصلوا لا يستطيعون ان يثبتوا غير هذا الامر — وهو ان كل معلوماتنا عن الدنيا المحيطة بنا انما مرجعها الى الحواس وحدها ، وما محاولات العقل الا تبويب هذه المشاهدات وترتيبها بحيث تستقيم مع بعضها في نظام واحد

* * *

هذا الجو الفكري هو اصلح الاجواء على الاطلاق للنظرية السلوكية وهذه الفلسفة هي خير الفلسفات جميعاً لمثل هذه النظرية ، فهي لاول وهلة تستقيم لمن يعيش في مثل هذا الجو الفكري ولمن يؤمن بمثل هذه الفلسفة ، ومن هنا كان اثر ديوي في نشر السلوكية في اميركا ، فهو الذي قد اعد لها هذا الجو وهو الذي استنبط الفلسفة العملية ورويج لها، وبذا اعد الافكار لقبول السلوكية عند ظهورها ، وكان من شأن هذه الحالة الفكرية انها شجعت واطسون على ان يقف هذا الموقف ، ويستوثق من نظريته كل الاستيثاق لانهُ في الواقع لا يدعو الا الى شيئين اثنين ، فهو يدعو اولاً الى التجربة والاختبار والى عدم الركون الى شيء في علم النفس الا ما ثبت منهُ بالتجربة والاختبار ، وهو يدعو ثانياً الى انكار كل شيء لم يثبت بالتجربة او لا يمكن اجراء التجارب عليه

فني الشق الاول يستقيم منطق واطسون مع الفلسفة الغالبة في اميركا ، فهو لا يدعو الاميركيين الى شيء غريب عنهم لم يكن لهم به عهد، بل لا يعدو دعوتهم لان يكونوا اميركيي النزعة في التفكير ، وهذا بالطبع سهل ميسور لا يكلف النفوس الا وسمها ، ولا يعدو فيه ان يكون معبراً عن خواطر الاميركيين ، ومن هنا ذيوع نظريته السلوكية وانتشارها بشكل جدي . وأما الشق الثاني من نظرية واطسون فهو الحفرة التي تتردى فيها نظريته، او هو السلاح الذي يقدمه للمفكرين غير متعمد حتى يبيتهم على القضاء على هذه النظرية السلوكية. وبعبارة اخرى ان النظرية السلوكية لا غبار عليها كطريقة علمية فحسب ، واما انها فلسفة عامة او نظرية شاملة للكون فهذا ما ينازعهُ فيه جمهرة الفلاسفة وعلماء النفس، وفي مقدمة من ينازعونهُ علماء نيويورك — اولئك الذين عضدوا هذه النظرية بتجاربهم وبفلسفاتهم

يعقوب قام
استاذ في التربية من جامعة ييل